قلبه بأنواع المجاهدات ولم يروض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فإذا خاض في العلم
أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره وقد ضرب
وهب لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها
فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله
على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت
همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا وإذا كان الرجل خائفا
مع جهله فإذا ازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا وتواضعا وذلا
فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولهذا قال الله تعالى لنبيه عليه السلام واخفض جناحك للمؤمنين
وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ووصف أولياءه فقال تعالى
أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون قوم
يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ثم التفت
إلى أصحابه فقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا
تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم واستأذن تميم الداري في القصص فأبى
وقال إنه الذبح واستأذنه إمام قوم أن يدعو لهم إذا سلم من صلاته فقال إني أخاف أن
تنتفخ حتى تبلغ الثريا وصلى حذيفة رضي الله عنه بقوم فلما سلم من صلاته قال التمسوا إماما أو
صلوا وحدانا فإني رأيت في نفسي أني أفضل القوم فإذا كان مثل حذيفة لم يسلم من ذلك فكيف
يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة فما أعز على بسيط هذه الأرض من عالم يستحق أن يقال
له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي
أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاقتباس من أنفاسه وأحواله ولو عرفناه في أقصى
الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وهيهات أن يسمح آخر الزمان
بمثلهم فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول وقد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم بل يعز
في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف على فوات هذه الخصلة فذلك أيضا معدوم أو عزيز
ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله يأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه

نجا لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن فيه من سوء أعمالنا
ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشره فنسأل الله أن يعاملنا
بما هو أهله وأن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه فضله وكرمه. الثاني العمل والعبادة
وليس يخلو عن رذيلة الكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين
والدنيا أما الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون
قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسيع في المجالس لهم وذكرهم بالورع وتقديمهم
على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على
الخلق وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك
حقيقة مهما رأى ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو
أهلكهم وإنما قال ذلك لأن هذا القول يدل على أنه مزدر لخلق الله مغتر بالله آمن من مكر
الله غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم
كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته
ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى
الله بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم إذا
أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم أن ينقله الله
للإهمال كما روي أن رجلا من بني إسرائيل يقال له خليع بني إسرائيل لكثرة فساده مر برجل
آخر يقال له عابد بني إسرائيل وكانت على رأس العابد غمامة تظله فلما مر به الخليع فقال الخليع
في نفسه أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه عسى الله يرحمني فجلس إليه
فقال العابد أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل كيف يقعد معي فأنف منه وقال له قم
عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل
العابد ثم تحولت الغمامة على رأس الخليع فهذا يعرفك أن الله إنما يريد من العبيد قلوبهم
فالجاهل والعاصي إذا تواضع ذلة لهيبة الله وهو خائف منه وانكسارا لأجل معصيته فقد
أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب فإنه عاص بقلبه وكذلك